﴿وَتِلۡكَ ٱلۡقُرَىٰٓ أَهۡلَكۡنَٰهُمۡ لَمَّا ظَلَمُواْ وَجَعَلۡنَا لِمَهۡلِكِهِم مَّوۡعِدٗا ٥٩﴾ [الكهف: 59]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لما قَبْلَها:

بيانُ سُنَّةِ الله تعالى في الأمم الماضيةِ بعد ذِكرِ إمهاله لمَن عصاه

لمّا توعَّد الله تعالى الكافرين؛ أعقبَ ذلك بقوله: ﴿وَتِلۡكَ ٱلۡقُرَىٰٓ أَهۡلَكۡنَٰهُمۡ لَمَّا ظَلَمُواْ وَجَعَلۡنَا لِمَهۡلِكِهِم مَّوۡعِدٗا﴾؛ فذكر الأمثلةَ من القرى التي نزل بها مِنَ العذابِ ما توعَّد هؤلاء بمثلِه، للإشارة إلى أنَّ هذه هي سنَّتُهُ في القرون الماضية والأمم الخالية، ليكون عِبرةً لهم، وشاهدًا على صدق الوعدِ[1].

وأيضًا بعد أنْ أُزيلَ غُرورُهُم بتَأَخُّرِ العَذاب، وأُبطل ظنُّهم الإفلاتَ مِنْهُ ببَيانِ أَنَّ ذَلِكَ إمهالٌ مِنْ أَثَرِ رَحْمَةِ الله بخَلْقِه، ضَرَبَ لَهُمُ المَثَلَ في ذَلِكَ بحالِ أَهْلِ القُرَى السّالِفينَ الَّذينَ أَخَّرَ عَنْهُمُ العَذابَ مُدَّةً، ثُمَّ لم ينجوا منه بالآخِرة؛ فجاءت هذه الآية[2].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿لِمَهۡلِكِهِم﴾: (هلك) أصل يدلّ على الكَسرِ والسُّقوطِ والإتلاف، ومنه الهَلاكُ، أي: السُّقوطُ، ولِذَلِكَ يُقالُ لِلْمَيِّتِ: هَلَكَ، والهَلَكُ: الشَّيْءُ الَّذي يَهْوي، ويسقُط، والأَرْضُ الهَلَكينُ: الجَدْبَةُ، فكأنَّها سقطت من اعتبارها أرضًا لعدم إنباتِها، وهَلَكَةُ النَّبات: جفوفُهُ بعد خُضرَتِه، والهَلَكُ: جيفَةُ الشَّيْءِ الهالِك، وأهلكَ المالَ: أنفقَهُ، وقد استعمل القرآن لفظَ الهَلاك في الموت المعتاد، وفي إنفاقِ المال إنفاقًا لا بتدمير وفي الإفناء والعذاب[3]،

(1) ابن عطيّة، المُحرَّر الوجيز: 3/ 526، والبقاعي، نظم الدُّرر: 12/ 94.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 15/ 358.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (هلك).

و﴿لِمَهۡلِكِهِم﴾ إمّا مصدرٌ بمعنى الإهلاك؛ وإمّا اسمُ زمان بمعنى وقتِ الإهلاك[1].

2) ﴿مَّوۡعِدًا﴾: الوَعْدُ يكون في الخير والشَّرِّ، يُقال: وعَدْتُهُ بنفعٍ وضرٍّ وعْدًا ومَوْعِدًا وميعادًا، والوَعيدُ في الشَّرِّ خاصَّة، يُقال منه: أَوْعَدْتُهُ، وأصل الكلمة من قولِهم: أرضٌ واعدة؛ إذا رُجي خَيْرُها من المطَر والأَعْشاب، وقد وعَدَتْ: رُجي خَيْرُها، ويوم واعدٌ: أوَّلُهُ يَعِدُ بحَرٍّ أو بَرْد، وسَحابٌ واعدٌ كأنَّه يَعِد بالمطر، وفرسٌ واعِدٌ: يَعِدُك جَريًا بعد جَرْيٍ، والمَوْعِد يأتي مصدرًا واسمي زمانٍ ومكانٍ[2]، والسّياق يُحدِّد المعنى، وهو هنا بمعنى الوقت والأجل[3].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

سـنَّـةُ الـلـه في إهـــلاكِ الأمـــمِ أنَّهم إذا ظَلَموا أُهلكوا

يُخبرُ الله تعالى عن سنَّتِه في إهلاك الظّالمين، فذكرَ أنَّ تلك القرى من قَوْم نوحٍ وعادٍ وثَمودَ وقَوْم لوطٍ وغيرهم أهلكنا أهلها لمّا ظلموا؛ فكفروا باللّه وآياته، وجعلنا لهلاكِهم وقتًا وأجلًا حين بلغوه؛ جاءهم عذابٌ؛ فأهلكناهم به، فكذلك جعلنا لهؤلاء المشركين من قومك - يا مُحمَّد - الذين لا يؤمنون بك أبدًا موعدًا، إذا جاءهم ذلك الموعد؛ أهلكناهم[4].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ الواو في قوله: ﴿وَتِلۡكَ ٱلۡقُرَىٰ﴾:

مُـقـايَـسَـةُ حـالِ الـظّـالـمين بـمَـنْ سـبـقـهـم مـن الظَّلمة المهلكين

أفادتِ الواوُ الوصل بين الجملتَيْن لتكون هذه الجملة معطوفةً على جملةِ ﴿لَّهُم مَّوۡعِدٌ لَّن يَجِدُواْ مِن دُونِهِۦ مَوۡئِلَا﴾، والجهة الجامعة بينهما إيعادُ الكافرين من أهل مكَّة بأنَّ لهم مثلًا فيمن قبلهم من

(1) الزّجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 3/ 289.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (وعد).
(3) الواحدي، التفسير البسيط: 14/ 65.
(4) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 53، والبَغَوي، معالم التنزيل: 3/ 202.

أهل القرى الظّالمة، فإن أصرّوا على ظلمهم؛ فسيُصيبهم ما أصاب أهلَ القرى من قبلِهم، والمعنى: وتلك القرى أهلكناهم بالفعل حين ظلَمهم، لكن لا في أوَّله، بل أمهلناهم إلى حين تناهيه وبلوغه الغايةَ، فليحذر هؤلاء مِثْلَ ذلك[1]، فـ(إمَّا) حينئذٍ ظرفٌ استُعمل للتعليل، ولا يُراد به الوقتُ المُعيَّن الذي عملوا فيه الظلم[2]، فوجهُ الاتصالِ بينَ هذه الآيةِ وما عُطفت عليه هو الإمهالُ، ويجوز أن يكون معنى: ﴿لَمَّا ظَلَمُواْ﴾: أوَّلَ ما ظلموا[3]، ويكون قوله: ﴿وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا﴾ تحقيقًا له، بزيادة تقرير المخالفة به لمّا سبق في الآية السابقة على هذه، ووجهُ المخالفة: أنَّ المُحدَّث عنهم في الآية السابقة أُمهِلوا، فكان موعدُ مهلكهم متأخِّرًا عن وقت ظلمهم، وأهلُ تلك القرى لم يُمهَلوا، بل أوخِذوا بما كسبوا، وكان موعدُ مهلكهم عقبَ ظلمهم، ويُؤيِّدُ هذا الفَهْمَ عندي التَّعبيرُ عن أهل القرى بالقرى على طريقة المجاز المرسل؛ للإشعارِ بعذابِ الاستئصالِ لبعض الأقوام السابقين، فإن صحَّ هذا الوجهُ مِنَ الاتِّصال بين المتعاطفين؛ كان مِن اللَّطائف.

بلاغةُ ردِّ العَجزِ على الصَّدْرِ في الآيةِ:

التَّناسبُ بين الثُّنائيَّاتِ في البيانِ القرآنيِّ مِن وجوه إعجازه

إذا كانت هذه الآيةُ مقطعَ الحديث عن القوم المذكورين مِن أهل الكفر والشِّرك؛ فإنَّها راجعةٌ إلى الآية الثّانية مِن فصلِها في السّورة، وهي آيةُ: ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُواْ رَبَّهُمْ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قُبُلًا﴾، فهي ترجع إلى قوله تعالى فيها: ﴿إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾، فتلك القرى هنا هي قرى هؤلاء الأوَّلين، وهذا مِن وُجوه الرَّبطِ بين مَطْلَع الفصلِ القرآني ومقطَعِه.

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 4/ 485.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/ 511.
(3) البقاعي، نظم الدُّرر: 4/ 485.

نكتةُ الإشارةِ للبعيد في قولِه: ﴿وَتِلۡكَ ٱلۡقُرَىٰٓ﴾:

في قولِه تعالى: ﴿وَتِلۡكَ ٱلۡقُرَىٰٓ﴾، عبَّرَ القرآن الكريمُ باسم الإشارة ﴿وَتِلۡكَ﴾ لإحضار المُشار إليه - وهي القرى - في أذهان المخاطَبين، فتكون القُرى مقدَّرةً في أذهانِهم وُمنزَّلةً عندهم منزلةَ المحسوس؛ لأنَّ العربَ كانوا يعرفون ديار عادٍ وثمودَ ومدينَ، ويسمعون بقوم لوطٍ وقوم فرعونَ، فكانَتْ كالحاضِرَةِ حينَ الإشارَةِ[1]، ففي التَّعبير باسم الإشارة تمييزُ المقصود أكملَ تمييزٍ وتعيينٌ له، وجاء اسم الإشارة للبعيد لإهانتِهم، ولمزيد تخويفهم، وللإشعار بأنَّ سنَّتَهُ تعالى في إهلاك الظّالمين ضاربةٌ في البُعد، وأنَّها مستمِرَّةٌ منذ زمنٍ بعيد.

سُنَّة الله تعالى في إهلاك الظّالمين ضاربةٌ في البُعدِ، متجدِّدة في العهد

علَّةُ إيثار لفظ ﴿ٱلۡقُرَىٰٓ﴾:

لمّا كان المقصودُ من الإهلاك هم القوم الذين ظلموا وكفروا وكذَّبوا رسلَهُم، كان التَّعبير بالقُرى - وهي الأبنية - على خلاف مقتضى الظّاهر، وفائدته الاعتبارُ بأمثالِهم وأضرابِهم من القوم السّابقين بما بقي من آثارِهم، فكان ذِكْرُ آثار القوم الذين هلكوا - وهي بيوتُهم ومواضعُ سُكناهم - أبلغَ من ذِكْر القوم وأدلَّ على المقصود، وهذا على طريقة المجاز المرسل مِن ذِكْر المحلِّ وإرادة الحال[2] بقرينة: ﴿أَهۡلَكۡنَٰهُمۡ﴾.

ذِكْرُ آثار القوم الَّذين هلكوا أدلُّ على المقصود في الاعتبار

نكتةُ التَّعبيرِ بالجمع في قولِه: ﴿ٱلۡقُرَىٰٓ﴾:

لمّا كان اسمُ الإشارة ﴿وَتِلۡكَ﴾ للمُفرَد والجمع بحسب ما يُشار إليه؛ كان مجيءُ ﴿ٱلۡقُرَىٰٓ﴾ صفةً لاسم الإشارة بصيغة الجمع؛ للإشعار بكثرة القرى التي أهلكها الله تعالى لمّا ظلموا، ففيه وعيدٌ شديدٌ لأهل مكَّة ومَنْ يظلم ظلمهم، بأنَّه تعالى لا يُعجزه إهلاكُ أيِّ بلدٍ

إنَّ الله تعالى لا يُعجزُهُ إهلاكُ أيَّة قريةٍ يمارس أهلُها الظُّلمَ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 358.

(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 12/ 114، والآلوسيّ، روح المعاني: 8/ 288.

يَظلم، وهذا تعليقٌ على الإمهال بأنَّه سينقطعُ بإنزالِ العذابِ بهم في موعدٍ لن يجدوا مِن دونه موئلًا، ولَمَّا كان إحداثُ التَّناسُبِ والترابُطِ بين مكوِّناتِ البيان القرآني مِن وجوه بلاغته وإعجازه؛ عُبِّرَ بالجمع ﴿ٱلْقُرَىٰ﴾ ليرجع الكلامُ بها إلى قوله تعالى: ﴿إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾، وهذا ظاهرٌ، وإلى قوله سبحانه: ﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾؛ لأنَّ ذِكْرَ المرسلين وبشارتَهم ونذارتَهم يستدعي في الذهن أقوامَهم الطائعين والعاصين، وقولُه: ﴿وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا﴾ يدخلُ في العاصينَ.

دلالةُ تقديمِ ﴿وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ﴾ على ﴿أَهْلَكْنَٰهُمْ﴾:

قولُه: ﴿وَتِلْكَ﴾ مبتدأٌ، و﴿ٱلْقُرَىٰٓ﴾: بَدَلٌ منه، أو عطف بيان، وقوله: ﴿أَهْلَكْنَٰهُمْ﴾: خبرُهُ، وهذا النَّظمُ يُفيدُ التَّشويقَ لمعرفة خبرِ تلك القرى، فالنَّفس متطلِّعة إليه، فإذا ما تلقَّتْهُ على هذه الحال تمكَّنَ فيها فضْلَ تمكُّنٍ، وهذا إحسانٌ إلى قوم رسول الله محمد ﷺ بالإبلاغِ في إيقاظِهم وتحذيرهم وترهيبهم وتذكيرهم، ينضافُ إلى الإحسان بالإمهال المذكور في الآية السابقة، وأصلُ الإحسان بالإيقاظ والتَّذكير والتَّرهيب حاصلٌ بالمعنى الظّاهر للكلام.

التَّذكيرُ بالعذاب من آلاء الرَّحمن، فكيف بالإبلاغ فيه؟

سرُّ العدول عن (عذّبناهم) إلى ﴿أَهْلَكْنَٰهُمْ﴾:

عُبِّرَ بالإهلاك دون العذابِ في قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ﴾؛ لأنَّ الإهلاكَ يُفيد أمرًا واحدًا، وهو الاستئصال والفناء، وهو المناسبُ هنا، وأمّا العذاب؛ فهو أنواع، ويدلُّ على الإيجاع والأذى، وقد ينتهي العذابُ بالكشف عن المُعذَّب ورفعِه عنه، فكان التَّعبيرُ بـ﴿أَهْلَكْنَٰهُمْ﴾ أنسبَ للمقام وأقضى لحقِّ البلاغة؛ لأنَّه تأسَّسَ عليه ما ذُكِرَ من قبلُ من الفرق بين أهل هذه القرى والمُحدَّث عنهم في الآية السابقة، من جهة الإمهال لهؤلاء، والأخذ بالعذاب عَقِبَ حصولِ الظُّلم من أهل تلك القرى.

الإهلاكُ يفيد أمرًا واحدًا هو الاستئصالُ، وأمّا العذاب؛ فهو أنواعٌ شتّى

دلالةُ إسنادِ الفعل في ﴿أَهۡلَكۡنَٰهُمۡ﴾:

لا يقدرُ على الإهلاك إلّا الله تعالى مسيِّر الأفلاك

في قوله تعالى: ﴿وَتِلۡكَ ٱلۡقُرَىٰٓ أَهۡلَكۡنَٰهُمۡ﴾ عَبَّر الذِّكر الحكيم بضمير العظمة (نا)؛ للإشعار بهول الإهلاك، وأنَّه لا يقدر عليه إلّا المَلِكُ الواحدُ الأحدُ، وصيغةُ العَظَمَةِ هي الأنسبُ بالجمع في قوله: ﴿وَتِلۡكَ ٱلۡقُرَىٰٓ﴾، مِن جهة أنَّه لا يقدر على ذلك إلّا العظيم سبحانه، ومِن جهة تعدُّد فاعلي الهلاك مِن الملائكة المأمورين مِن قِبَلِ الله بذلك، ثم لَمَّا كان العذابُ هنا عَقِبَ حصولِ الظُّلم منهم - على أنَّ معنى: ﴿أَهۡلَكۡنَٰهُمۡ لَمَّا ظَلَمُواْ﴾: أهلكناهم أوَّلَ ما ظلموا - كان الجلالُ الإلهيُّ هو الظاهرَ لهم والظاهرَ عليهم؛ فعُبِّرَ بما هو نَصٌّ في العظمة، فقيل: ﴿أَهۡلَكۡنَٰهُمۡ﴾، وأمَّا قوله تعالى في الآية السابقة: ﴿بَل لَّهُم مَّوۡعِدٞ لَّن يَجِدُواْ مِن دُونِهِۦ مَوۡئِلٗا﴾؛ فهو على نسق: ﴿لَوۡ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُواْ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلۡعَذَابَۚ﴾، فهو مِن مقولٍ واحدٍ، وهو الله تعالى، كأنَّه قيل: وأقولُ: ﴿بَل لَّهُم مَّوۡعِدٞ لَّن يَجِدُواْ مِن دُونِهِۦ مَوۡئِلٗا﴾، فكان لجمال الله حضورٌ كما لجلاله حضورٌ؛ فلهذا كان الإمهالُ.

نكتةُ عَوْدِ الضَّميرِ مجموعًا في: ﴿أَهۡلَكۡنَٰهُمۡ﴾:

إهلاكُ القُرى بإهلاكِ أهلِها وعمارتُها بعمارةِ أهلِها فيها

كان الظّاهر أن يُقال: (أهلكناها) ليعود الضَّميرُ على ﴿ٱلۡقُرَىٰٓ﴾، لكنَّه لمّا جاء الضَّميرُ لجمع العقلاء (هُم)؛ أفاد أنَّ الإهلاكَ لأهل القرى، وهو المقصود في الاعتبار؛ لأنَّ القرى لا تُهلكُ إلّا بهلاك أهلها، وإلّا فما داموا فيها؛ فهي عامرةٌ بهم، وتقديرُ الكلام: (وأهل تلك القرى أهلكناهم)، وهذا مِن تبرُّجِ الدلالةِ، وهو بالغ الحدِّ الأعلى في الذِّكر الحكيم.

فائدةُ مجيءِ المسند جملةً فعليَّة:

تحقيقُ إهلاكِ الله للمُهلَكين دونَ تخصيصِ الإهلاك بهم

جاء في قوله تعالى: ﴿وَتِلۡكَ ٱلۡقُرَىٰٓ أَهۡلَكۡنَٰهُمۡ﴾ المُسنَدُ الخبر ﴿أَهۡلَكۡنَٰهُمۡ﴾ جملةً فعليَّة للمُسنَد إليه ﴿وَتِلۡكَ﴾؛ لإفادة تقوّي الحُكْم وتحقيقِهِ، فالمُراد تحقيقُ إهلاكِ الله لهم دون تخصيصِ الإهلاك

بهم، فهذا التَّعبيرُ أبلغَ من أن يُقال: (وأهلكنا تلك القرى)، لتضمُّنِه تأكيدَ الحكم وتقويته.

دلالةُ ﴿لَمَّا﴾ في ثنايا السّياق المحكم:

الظُّلم نتيجتُهُ الإهلاكُ، والظُّلم مرتعُهُ وخيمٌ

في قوله تعالى: ﴿أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُواْ﴾ عَبَّر الخطاب القرآني بـ﴿لَمَّا﴾ دون غيرِها من الألفاظ التي تدلُّ على الوقت، وذلك لما تفيده ﴿لَمَّا﴾ هنا من دلالتِها على الوقت الممتدِّ من ابتداء الظُّلم إلى آخرِه وعلى التَّعليل، فيحصل بها مقصدُ الإمهال، ففي التَّعبير بها إيذانٌ بأنَّ إهلاكَهم بسبب ظلمِهم، وليس المرادُ أنَّ إهلاكَهم كانَ وقتَ ظلمِهم، فإنَّ ظلمهم متقدِّمٌ على إنذارهم، وإنذارُهم مُتقدِّمٌ على إهلاكِهم[1]، وفيه تَحْذيرٌ من الظُّلم إذْ نَتيجَتُهُ الإهْلاكُ، ويجوز أن تكون بمعنى الوقت المُعيَّن الذي عملوا فيه الظُّلم، وقد مرَّ بيانُ نكتةِ القول به.

بلاغةُ حذفِ مفعول ﴿ظَلَمُواْ﴾:

مَن أشركَ بالله تعالى، فقد ظلمَ نفسَهُ وأهلَهُ

حُذفَ المفعول في قوله تعالى: ﴿أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُواْ﴾ إمّا لتعميم الظُّلم، بمعنى: أنَّهم ظلموا أنفسَهم وأهلَهم بكفرِهم، وظلموا كلَّ مَن كان معهم، للإشعار بأنَّ الشِّركَ باللّه والكفرَ به سبحانه أشدُّ أنواع الظُّلم وأبلغُه، أو لتنزيل الفعلِ منزلةَ اللّازم[2]، ليفيد أنَّ الظُّلمَ قد صار سجيَّةً لهم، بمعنى: لا يأتي منهم إلّا الظُّلم، ومَن كان منه الكفر والشِّرك؛ كان كذلك، فمآلُ الوجهَيْن واحدٌ.

دلالةُ الواو في قوله: ﴿وَجَعَلْنَا﴾:

تحذيرُ الظّالمين بعدم الاغترارِ بتأخير العذاب عنهم

أفادتِ الواوُ عطفَ جملة ﴿وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم﴾ على جملة ﴿أَهْلَكْنَاهُمْ﴾؛ لتفيدَ الإخبارَ عن المُسنَد إليه بجملتَيْن، فلمّا أخبر عنهم بإهلاكِهم؛ أخبر عنهم بأنَّه تعالى جعل لهلاكِهم وقتًا مُعيَّنًا

(1) ابن مالك، شرح الكافية: 3/ 1644، وأبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 195، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 231.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 231.

لا محيدَ عنه، ليتنبَّهَ أهلُ مكَّةَ والظّالمون لذلك، ولا يغترّوا بتأخُّر العذاب عنهم، والمُرادُ: (إنّا أهلكناهم، ومَعَ ذَلِكَ لَم نَدَعْ أَنْ نَضْرِبَ لهلاكِهم وقْتًا ليَكونوا إِلَى التَّوْبَةِ أَقْرَبَ)، وفيه إشعارٌ بامتدادِ زمن ظلمِهم، فإنَّ ضرْبَ الموعدِ لهلاكِهم يفيد أنَّهم قد ظلموا، ثمَّ استحقّوا الإهلاكَ، فضُرِبَ موعدٌ لهُ، ثمَّ استمرّوا في ظلمِهم حتَّى جاء وقت الإهلاكِ، فأُهلكوا، وقد يُفيدُ تحقيقَ ما يُفْهَم مِن قوله: ﴿لَمَّا ظَلَمُواْ﴾، بمعنى: أوَّلَ ما ظلموا؛ لأنَّهُ يلفت إلى قوله من قبل: ﴿لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُواْ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَۚ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُواْ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا﴾.

دلالةُ التَّعبيرِ بلفظ ﴿وَجَعَلْنَا﴾:

عبَّرَ الخطابُ القرآنيُّ الكريم - في قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُواْ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا﴾ - بلفظ الجعْلِ دون غيره من المفردات، وذلك للإشعار بعِظَم ضرب الموعدِ للإهلاكِ والتَّعجيب منه.

اختيارُ اللَّفظ الأنسبِ للدَّلالة على المرادِ من بليغ البيان

دلالةُ الإسناد في قوله: ﴿وَجَعَلْنَا﴾:

عُبِّرَ بضمير العظمة (نا) - في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا﴾ - للإشعار بعِظَمِ الجعْلِ المذكور، وأنَّه لا يقدر عليه إلّا الملكُ الإله الواحد الأحد، أيْ: جعلنا لمهلكِهم موعدًا بما لنا من العظمة، ولأنَّ الجلالَ هو المُسيطِرُ على موقف الغضب والعذاب.

عظمةُ الجعلِ وإعجازه في كونه حاصلًا من الله تعالى

دلالةُ صيغة (مَهْلِكِ):

في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا﴾، صيغةُ (مَفْعِل) للمصدر، والمعنى: (وجعلنا لإهلاكِهم موعدًا)، وعُبِّرَ بالمصدر الميمي دون المصدر الصَّريح للمبالغة في قوَّة الإهلاكِ وتأكيدِه؛ "لأَنَّ المَصْدَرَ الميميَّ أَبْلَغُ مِنْ جِهَةِ زيادَةِ المَبْنى"[1]، وهو الأنسبُ بمعنى الإهلاك.

إهلاكُ الله عظيمٌ وجسيمٌ، يجسِّدُهُ هلاكُ الأمم المهلكة

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/ 344.

دلالةُ الإضافةِ في قولِه: ﴿لِمَهْلِكِهِم﴾:

الاختصاصُ بالمهلك قدرُ الله المقدور

في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا﴾، لمّا كانت الإضافةُ هنا على معنى اللّام لتُفيد الاختصاص؛ كانت الإضافةُ من إضافة المصدر إلى مفعولِه.

بديعُ جناسِ الاشتقاق في ﴿أَهْلَكْنَاهُمْ﴾ و﴿لِمَهْلِكِهِم﴾:

الَّذين أهلكَهم الله هم الذين ضربَ موعدًا لمهلكِهم لا يُخلف

في قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا﴾ جاء اللَّفظان ﴿أَهْلَكْنَاهُمْ﴾ و﴿لِمَهْلِكِهِم﴾ على جناس الاشتقاق، للإشعار بأنَّ الذين أهلكهم الله تعالى هم الذين ضربَ الله لهم موعدًا لمهلكِهم، كما أنَّ في التَّعبير بالجناس مزيدَ تخويفٍ للظالمين وتحذيرٍ لهم من ظلمِهم؛ لأنَّه بقوله: ﴿لِمَهْلِكِهِم﴾ يتجدَّد معنى الهلاك والإهلاك، ويتكرَّر، وهذا إبلاغٌ في الترهيب، وأصلُ معنى الترهيب والتخويف حاصلٌ بظاهر معنى الكلام.

دلالةُ تقديم ﴿لِمَهْلِكِهِم﴾ على ﴿مَّوْعِدًا﴾:

توقيتُ موعد الإهلاك وعيدٌ حقٌّ لا يُخلف

قُدِّمَ الجارُّ والمجرور ﴿لِمَهْلِكِهِم﴾ على المفعول ﴿مَّوْعِدًا﴾ لإفادة الاختصاص على معنى القصر الإضافي للاهتمام بشأنِ إهلاكِهم، بمعنى أنَّه تعالى جعل لمهلكِهم، وليس لشيءٍ آخر الموعدَ المقرَّر لا يتقدَّمون عليه، ولا يتأخَّرون عنه، كما أنَّ في التَّقديم رعايةً للفاصِلة، وفي التقديم دلالةٌ على الغضب الإلهيِّ، فإنَّ إهلاكهم صار حكمًا ومقصدًا.

توجيهُ القراءاتِ القرآنيَّةِ في قوله: ﴿لِمَهْلِكِهِم﴾:

تعدُّد القراءات مزيدُ بيانٍ لحلول العذابِ بالظَّالمين

قرأ حَفْصٌ عن عاصم بفَتْحِ الميم وكَسْرِ اللّام، أيْ: ﴿لِمَهْلِكِهِم﴾، وقرأ شُعْبة عن عاصم بفَتْحِ الميم واللّام الَّتي بَعْدَ الهاءِ، أي: ﴿لِمَهْلَكِهِم﴾، وقَرَأَ الباقونَ بضَمِّ الميم وفَتْحِ اللّام، أي: ﴿لِمُهْلَكِهِم﴾، فمَن قرأ: ﴿لِمَهْلِكِهِم﴾؛ فالمعنى: لإهْلاكِنا إيّاهم، وتكون الإضافة من إضافة المصدر لمفعولِه؛ لأنَّه مصدر (أهلك)، ومَن قرأ:

﴿لِمَهۡلَكِهِم﴾؛ فمعناه: لهلاكِهم، وتكونُ الإضافةُ من إضافة المصدر لفاعله؛ لأنَّه مصدرُ (هلك يَهْلِكُ)، أو يكون المُهلَكُ اسمَ زمان، أيْ: جعلنا لوقتِ إهلاكِهم موعدًا مُعيَّنًا، ومَن قرأ: ﴿لِمُهۡلَكِهِم﴾؛ فبمعنى: لإهلاكِهم[1]، وفي تعدُّد القراءات إبلاغٌ في بيان حلول العذابِ بالظّالمين؛ لأنَّه آخِرُ هذا الفصلِ القرآنيِّ في السّورة؛ ليقابل الإبلاغَ في سببِ نجاتهم ممّا هو كامنٌ في معجزة نبيِّهم، وهو التَّصريف للنّاس في هذا القرآن من كل مَثَلٍ، فيلتقي المقطعُ بالمطلع أحسنَ التقاءٍ وأتمَّهُ، وليقابل هذا الإبلاغُ بوجوه القراءات عظيمَ إحسان اللّه إليهم بإمهالهم إكرامًا لنبيِّهم ﷺ؛ لينتبهوا لهذا الإكرامِ والإحسان، ولئلّا يغترّوا.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الإهلاك والقتل:

الإهـلاكُ إبطالُ الـشَّيْءِ وإتلافه وفناؤه، والقتل أخـــصُّ مـن الإهلاكِ

الإهلاكُ يكون بنَقْضِ البنيةِ الحيوانيَّةِ وإبْطالِ الحاسَّة، ويُفيد فسادَ المهلَك، ولا يُستعمل إلّا في سياقِ الذَّمِّ، ويُعبَّر بالهلاكِ عن بُطلانِ الشَّيْءِ من العالم وعدمه رأسًا، وذلك المُسمَّى فناءً المشار إليه بقوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيۡءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجۡهَهُۥ﴾ [القصص: 88] ويُقال للعذاب والخوف والفقر: الهَلاكُ، وأمّا القتلُ؛ فهو نقضُ البنية الحيوانيَّة، ولا يقتضي ذمًّا، ولا يُقال له: قَتْلٌ في أكثر الحال إلّا إذا كان من فعل آدميٍّ، فالقتل أخصُّ من الإهلاكِ، ولكلِّ لفظٍ استعمالُه وسياقُه، والمناسبُ لأحوال الأقوام أهل تلك القرى هو ذلك الإهلاكُ؛ لأنَّ عذابَهُم لم يكن بالقتل فقط، وهم قد ذُكِروا في سياقِ المَقيس عليه ظلمًا كفرًا وشركًا وعقابًا.

(1) الأزهريّ، معاني القراءات: 2/ 114، والبَغَوي، معالم التنزيل: 3/ 202، وابن عطيّة، المُحرَّر الوجيز: 3/ 526، والفخر الرازيّ، مفاتيح الغيب: 21/ 477، وابن الجزري، النّشر: 2/ 311.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثلاثون،
سورة الكهف من الآية 37 إلى سورة مريمَ الآية 12
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الثلاثون، سورة الكهف من الآية 37 إلى سورة مريمَ الآية 12
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 30 ، 804 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-27-2
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 30 : المجلد الثلاثون، سورة الكهف من الآية 37 إلى سورة مريمَ الآية 12.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-768-27-2
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-9725630 بتاريخ 2024/11/04م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»